

الفصول المختارة

[63] فإن قال قائل: إن محنة إسماعيل - عليه السلام - أجل قدرا من محنة أمير المؤمنين - عليه السلام - وذلك أن أمير المؤمنين - عليه السلام - قد كان عالما بان قريش إنما تريد غيره وليس غرضها قتله وإنما قصدها لرسول الله (ص) فإنه كان على ثقة من السلامة وإسماعيل - عليه السلام - كان متحققا لحلول الذبح به من حيث امتثل الأمر الذي نزل الوحي به فشتان بين الأمرين. قيل له: إن أمير المؤمنين - عليه السلام - وإن كان قد كان عالما بان قريشا إنما قصدت رسول الله (ص) فإنه كان يعلم بظاهر الحال وما يوجب غالبا الظن من العادة الجارية شدة غيظ قريش على من فوت غرضهم في مطلوبهم ومن حال بينهم وبين مرادهم من عدوهم ومن لبس عليهم الأمر حتى ضلت حيلتهم وخابت آمالهم من أنهم يعاملونه باضعاف ما كان في أنفسهم أن يعاملوا صاحبه لتزايد حقنهم وحقدهم واعتراء الغضب لهم، فكان الخوف منه عند هذه الحال أشد من خوف الرسول (ص)، واليأس من رجوعهم عن إيقاع الضرر به أقوى من يأس النبي (ص). وهذا هو المعروف الذي لا يختلف فيه اثنان لأنه قد كان يجوز منهم عند ظفرهم بالنبي (ص) أن تلين قلوبهم له ويتعطفوا للنسب والرحم التي بينهم وبينه ويلحقهم من الرقة عليه ما يلحق الطافر بالمظفور به فيبرد قلوبهم ويقل غيظهم وتسكن نفوسهم، وإذا فقدوا المأمول من الطفر به وعرفوا وجه الحيلة عليهم في فوتهم غرضهم وعلموا أن بعلي - عليه السلام - تم ذلك، ازدادت الدواعي لهم إلى الإضرار به وتوفرت عليه وكانت البلية أعظم على ما شرحناه. على أن إسماعيل - عليه السلام - قد كان يعلم أن قتل الوالد لولده لم يجر به عادة من الأنبياء والصالحين ولا وردت به فيما مضى عبادة فكان يقوى في نفسه أنه على
